# الدكتورة منى أبو الفضل
# وتأسيس حقل دراسات المرأة
# من الداخل المسلم

أ.هند مصطفى (*)

**تقديم:**

مثلت قضية المرأة مجالًا تطبيقيًّا للأطروحات النظرية القيمة التي قدمتها أ.د.منى أبو الفضل في رحلتها العلمية الثرية التي حفلت بمراجعات أصيلة وأفكار جديدة في النظرية الاجتماعية المعاصرة. هدفت منها بدايةً إلى تطوير أطر نظرية صالحة لدراسة الظاهرة الحضارية العمرانية التي نشأت وتكرست بفعل الإسلام في ذلك الحيز الممتد المعروف بالعالم الإسلامي، تلك الظاهرة التي كانت المناهج الغربية السائدة تعجز عن احتوائها لأسباب معرفية أولية، وكان عليها (**رحمها الله**) أن تقوم بشكل منفرد بجهد ضخم من أجل بناء أطر نظرية بديلة أكثر ملائمة، الأمر الذي اقتضى منها في المقام الأول القيام بعمليات نقد معمقة للأطر السائدة، والبدء –على التوازي– في بناء أطر بديلة تحقق شرط التكافؤ المنهاجي مع الظاهرة المدروسة. في مرحلة تالية، ومع تصاعد الأزمات الفكرية العالمية، بدأت أ.د.منى أبو الفضل تعمل على تطوير ما تقدمه من أطر نظرية لتقديمه للعالم من موقعها كعالم مسلم ذي رسالة. في إطار ذلك جاءت أفكارها حول النسق القياسي والمعرفة التوحيدية والمنظور الحضاري وما ارتبط بها من رؤية منهجية وشبكة مفاهيمية فعّلتها في موضوعات اهتمام مختلفة متعلقة بالأمة الإسلامية من بينها موضوع المرأة.

وجاء اختيار أ.د.منى أبو الفضل (**رحمها الله**) لقضية المرأة بوجه خاص لتكون شغلها الشاغل خلال السنوات العشر الأخيرة من حياتها انطلاقًا من دواعٍ واقعية

(*) **باحثة في العلوم السياسية بمنظمة المرأة العربية بالقاهرة**. حاصلة على درجة الماجستير في العلوم السياسية في موضوع "**الإصلاح السياسي في خطاب المرأة العربية في الفترة 1892 – 1952 دراسة في خطابي ملك حفني ناصف وهدى شعراوي**"، وتعد حاليًا لنيل درجة الدكتوراه في موضوع "**المرأة والنزاعات المسلحة: دراسة في الخطاب الدولي المعاصر**".

جعلت الاشتغال على قضية المرأة بمنزلة الوقوف على "ثغر" من ثغور الأمة بحسب تعبيرها.

تروي هذه الورقة المختصرة رحلة أ.د.منى أبو الفضل مع مشروعها لتأسيس حقل دراسات المرأة من الداخل الإسلامي، بدءًا من بزوغ اهتمامها بالمشروع ضمن خريطة اهتماماتها الفكرية عامة، ودوافع اهتمامها به على الصعيد الثقافي والأكاديمي، ثم الكيفية التي تحولت بها الأفكار إلى كيانات مؤسسية منتجة لأطروحات فكرية ومنهجية أصيلة شكلت معالم أولية لهذا الحقل الدراسي.

1 - **بداية الاهتمام:**

تؤصل أ.د.منى أبو الفضل (**رحمها الله**) لبداية اهتمامها بقضايا المرأة في فترة ما بعد استقرارها في الولايات المتحدة الأمريكية حول منتصف الثمانينيات. حيث تشير إلى أن الفترة منذ عام 1979 شهدت تزايد الاهتمام الغربي بالمرأة المسلمة؛ نظرًا لما ظهر تلك الأثناء من بوادر حضور سياسي عالمي للكيان الإسلامي ككيان اجتماعي حضاري، وكنظام يتميز بتمتعه بقدر من التماسك الداخلي يتمثل في بنيان أسري متين يظهر حتى في تلك الأماكن من العالم الإسلامي التي تعتبر "**متخلفة**" بالمنظور الاقتصادي السياسي. ومن ثم، بدأ إلقاء الضوء على المرأة المسلمة كونها تمثل حجر الزاوية لتماسك الأسرة، لاسيما عندما بدا أن تماسك الأمة حضاريًّا لا ينبع من المواقع الأمامية (السلطة) بل من دواخل المجتمع حيث توجد المرأة. وتضيف أن هذا الاهتمام بالمرأة المسلمة تحديدًا تزامن مع تصاعد الاهتمام العالمي بقضايا المرأة بوجه عام، حيث تقاطعت تلك الفترة مع تخصيص الأمم المتحدة عام 1975 عامًا دوليًّا للمرأة واعتبارها الفترة من 1976-1985 عقدًا للمرأة. وفي عام 1975، عقدت الأمم المتحدة في مدينة "**مكسيكو سيتي**" أول مؤتمر عالمي بشأن المرأة، وتلته مؤتمرات عالمية في كوبنهاجن (1980) ونيروبي (1985) وبكين (1995) [1].

(1) "**المرأة من منظور حضاري مدخل لتصحيح المسار وتقديم النموذج العالمي**"، تقرير غير منشور عن أعمال ندوة عقدت في مستشفى أم الأطباء بالدقي بمناسبة تأسيس كرسي لدراسات المرأة يحمل اسم "**كرسي الدكتورة زهيرة عابدين للدراسات النسوية**" بقرار اتخذه مجلس أمناء جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية ومقرها ولاية فيرجينيا الأمريكية في جلسته المنعقدة بتاريخ 17/ 4/ 1998.

وتوضح دكتورة منى أبو الفضل (**رحمها الله**) أن هذا الاهتمام بقضية المرأة قد تحول إلى المجال الأكاديمي، حيث أصبحت الجامعات الغربية منبرًا ومحضنًا لتوليد حقل دراسي جديد يمثل الجناح الفكري للحركة التي تهتم بالمرأة، ومنذ عام 1974، ظهر في الولايات المتحدة مئات الأقسام لدراسات المرأة نمت بطريقة تدريجية من أقسام دراسات عليا (**ماجستير- دكتوراه**) وترسخت بحيث لم تعد هناك أكاديمية علمية لا تحتوي قسمًا أو مركزًا لدراسات المرأة [1].

وقد اهتمت (**رحمها الله**) منذ تلك الآونة بفتح ملف الاهتمام الغربي بقضايا المرأة المسلمة الذي تطور فيما بعد ليشكل منطلق دراسات المرأة من منظور حضاري الذي احتوته جمعية دراسات المرأة والحضارة ككيان مؤسسي ذي اهتمام أكاديمي بالأساس.

ومن واقع متابعتها الحثيثة لتطورات حقل دراسات المرأة في الغرب، وتحديدًا الدائرة التي تُعنى بدراسة "**المرأة في الشرق الأوسط**"، سجلت (**رحمها الله**) اختلافًا شهده الحقل فيما يتعلق بتحديد "**هوية**" المرأة التي تتم دراستها، وذلك بين عقدي السبعينيات والثمانينيات وما بعدهما.

وتوضح بهذا الصدد أنه بدأ تعريف هوية المرأة محل الدراسة بكونها عربية أو إيرانية أو تركية بالأساس، وذلك انعكاسًا لهيمنة حقلي دراسات المناطق والأنثروبولوجي، حيث تركز اهتمام الباحثين في ضوء ذلك على الدراسة الأنثروبولوجية لوضع المرأة في بعض البلدان العربية أو المسلمة (**مثل تركيا أو إيران وغيرهما...**). ذلك إضافةً للاهتمام بإنتاج دراسات في الموضوعات الأكثر رواجًا عن المرأة طبقًا لأجندة الأمم المتحدة، مثل المرأة والتنمية والسكان والتعليم... الخ.

وقد رصدت هذا التوجه من خلال إلقائها الضوء على عدد من الببليوجرافيات الصادرة خلال تلك الفترة [2].

(1) المصدر السابق.

(2) Michelle Raccagni, **The Modern Arab women: A Bibliography**, Metuchen, Nj, and London: Scarecrow Press, 1978.

- **Population and Family Planning Broad, Egyptian Population Studies: Annotated Bibliography**, Cairo: population and Family Planning Board, Vol. s 1&2, 1978.

ومع بداية عقد التسعينيات، تغير هذا المدخل في التناول تغيرا ملحوظًا تزامناً مع انتهاء الحرب الباردة وبروز أطروحة النظام العالمي الجديد، وما تضمنه ذلك من إعادة النظـر في الخريطـة العالميـة والتركيـز عـلى المنظـور الثقـافي "Cultural Perspective" كمحور أساس لرسم تلك الخريطـة، وكـشفت أ.د.منـى أبـو الفـضل انعكـاس هـذه التغيرات في العنوان الذي حملته ببليوجرافيا شهيرة صدرت عام 1997، وهي:

Michelle R. Kimball،Brabara R. Von Schlegell،***Muslim Women throughout the World: A bibliography*** (London: Lynne Rienner Publisher،1997)

وهكذا، بدأ إعادة توصيف المرأة في المنطقة بأنها **المرأة المسلمة** تحديدًا [1]. وتكـشف مراجعات أ.د.منى أبو الفضل أن هذه الطائفة الجديدة من الدراسات رغم ما عكـسته من تطور ونضج يرتقي بالعمل البحثي من المرحلة الوصفية إلى مرحلـة تنظيريـة أكثـر تعقيدًا تدمج الأبعاد الحضارية والتاريخية والاجتماعية، فإنها قد خضعت لتأثير رافدين: الاستشراق بتحيزاته العرقية من ناحية، والحداثة بفرديتها المفرطة من ناحية أخرى.

إزاء هذا الاهتمام النوعي بـالمرأة المـسلمة، الـذي تابعتـه بتـسجيل أمـين الأسـتاذة الدكتورة منى أبو الفضل، لاحظت (**رحمها الله**) أنه في المقابل يغيب أى صوت أو رؤية فكرية متميزة للمرأة المسلمة داخل دوائر العالم الإسلامي المختلفة على **"محور طنجـة-جاكرتـا"**، وكـذلك في آسـيا الوسـطى لاسـيما عـلى المـستوى الفكـري والأكـاديمي. وبحسب تعبيرها، فإنه في مقابل الدراسات الغربية والمستغربة عن المرأة المسلمة والمرأة في الشرق الأوسط، يغيب الصوت الحضاري للمرأة المسلمة، التـي تمثـل ثقـلًا عـدديًّا كبيرًا على مستوى العالم.

---

-Samira Rafidi Meghdessian, **The Status of Arab Women: A select Bibliography**, Westport, CT: Greenwood Press, 1981.

**-Bibliographic Guide to Studies on the Status of Women: Development and Population trend**s, Paris: UNISCO, 1983.

انطلاقًا من هذا، جاء مشروع أ.د.منى أبو الفضل الهادف لأن يكون للمرأة مساهمة ورؤية من الداخل الحضاري تواجه الخطاب المقابل من ناحية، وتقدم إسهامها في تشكيل الخطاب العالمي بصفتها ممثلة لعمق حضاري متميز من ناحية أخرى.

2 - **الدوافع الأساسية:**

كانت أ.د.منى أبو الفضل في إقدامها على بناء حقل دراسات المرأة من الداخل الإسلامي تستلهم تقاليد نشأة العلوم في الحضارة الإسلامية كما درستها وأصّلت لها. تقول (**رحمها الله**) إن الإسلام أحدث تغييرًا جوهريًّا في القيم الاجتماعية المتجذرة، تغييرًا استهدف إعادة تعريف وتشكيل مقاصد الحياة، فحول الطاقات الإنسانية إلى جهود إيجابية فاعلة لها مقاصد واضحة في الزمان والمكان وما ورائهما، إذ باتت جهودًا موجهة لخدمة الأمة والعقيدة، وتمتد آفاقها إلى الحياة الأخرى وما ينتظر الإنسان ذكرًا كان أو أنثى من مآلات فيها مرتبطة بعمله في الحياة الدنيا. في هذا الإطار لم تنشأ العلوم الإسلامية "**تكنهًا أو تذوقًا على غرار المصادفة والتأمل، استرسالًا واستحسانًا، على نحو ما استبطنه النهج السقراطي... بل كانت محددة المقصد والغاية منذ البداية متوخية الحرص على صون وخدمة العقيدة ومصادرها. ومن هنا، انطلق الاهتمام بعلوم اللغة العربية التي هي لغة القرآن، وانبرت الهمم للترجمة والتدوين لطبقات الرجال والنساء الذين حفظوا الحديث ورووه...**" [1]

من هنا جاء الدافع لبناء حقل دراسات المرأة والحضارة، دافعًا متعدد الأبعاد يحقق عدة أغراض إصلاحية معًا، يمكن مبدئيًّا تصنيفها إلى أغراض أكاديمية وثقافية واجتماعية، لكنها كلها مرتبطة فيما بينها وهدفها جميعًا خدمة الأمة والدين، **وبيان ذلك كما يلي:**

**على المستوى الثقافي-الاجتماعي:**

- جاء مشروع الدكتورة منى أبو الفضل في لحظة عالمية شهدت إثارة وترويج لقضية المرأة، وقد كانت (**رحمها الله**) من بعد النظر بمكان إذ حذرت في أكثر من موضع

(1) منى أبو الفضل، "**نحو منظور حضاري لقراءة سيرة وتاريخ المرأة المسلمة**"، **المرأة والحضارة**، القاهرة: جمعية دراسات المرأة والحضارة، العدد الثاني، يونية 2001، ص ص: 161 - 162.

في كتاباتها وندواتها الخاصة والعامة، ومنذ وقت مبكر منذ النصف الثاني من التسعينيات، من أن موضوع المرأة قد أضحى يستخدم كمدخل لتغيير العالم، والعالم الإسلامي خاصة، وقد سبقت تحذيراتها هذه حوادث شتى شهدها العالم الإسلامي في أطرافه المختلفة، كان أقربها آنذاك ما حدث في أفغانستان بعد الضربة الأمريكية لها عقب حادثة 11 سبتمبر 2001. كانت رؤيتها (**رحمها الله**) أنه بدلًا من أن ننتظر أن تكون المرأة مدخلًا لتفريغ مجتمعاتنا من هويتها وقيمها وحضارتها، نبادر لجعلها -أي المرأة- مدخلًا للتصحيح والبناء من الداخل.

- إذ تعتبر قضية المرأة قضية ثقافية بالأساس، فهي ترتبط بمراجعات ضرورية في طريقة قراءتنا للأصول شاملة القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي بهذا تشكل فضاءً لإصلاح أساسي في فهمنا كمسلمين للدين وأصوله، وهو أمر يبدو شديد الإلحاح في المشهد الإسلامي المعاصر حيث اختلط الإسلام بالتقاليد والأعراف السائدة، وصار مرجعًا لكثير من السلوكيات الشاذة والمتطرفة التي تدّعي الدين، وصار بالتالي متهمًا بالمسئولية عن كثير من مظاهر الانحطاط التي يعايشها المسلمون ومنها وضع المرأة.

- إن مقاربة دراسات المرأة من مدخل الإصلاح لهي ممارسة إصلاحية تتجاوز حيز قضايا المرأة إلى قضايا الأمة بحكم الارتباط الوطيد بين الاثنين على المستوى الثقافي والاجتماعي العام. هذا الارتباط الوطيد يجعل من ملف المرأة، ليس فقط مدخلًا من مداخل الإصلاح، بل مدخلًا مثاليًّا وأساسيًّا للإصلاح العام. وفي مقال لها (**رحمها الله**) عن الإسلام والإصلاح من منظور النوع الاجتماعي، أوضحت أن حركة الإصلاح داخل العالم الإسلامي تتسم بارتباطها بثلاثة ملامح؛ أولًا ارتباطها بالإسلام، وثانيًا تمحورها حول الجماعة أو الأمة، وثالثًا بروز المرأة بشكل رئيسي وحميم في قلب السجالات النظرية والسياسات التطبيقية لتلك الحركة [1]. وكشف المقال أن هذه السمات ميَّزت حركة الإصلاح في الحوض الحضاري الإسلامي في مطلع القرن العشرين، ولم يكن اقترانها بالإصلاح آنذاك مجرد نتاج ظرف تاريخي آني، ولكن أتى

(1) Mona abul- Fadl, "Islam and Reform: Gender Perspective on A Theme ", في: **المرأة والحضارة**، القاهرة: جمعية دراسات المرأة والحضارة، العدد الأول، ربيع 2000.

ذلك ضمن خصائص دفينة في أصول وخبرة واكبت كل حركات الإصلاح والتغيير في الحيز الحضاري الإسلامي منذ البداية. وقد حرصت في ضوء هذا على تأكيد معنيين: أولهما- أنه **"لا مكان لخطاب نسوي ينفلت عن مدار خطاب الأمة العام، وبالتالي فلا مجال للسعي لإصلاح حال المرأة بمعزل عن تصحيح مسار الأمة"**، وثانيهما- **"أنه في غيبة تصور محدد لموقع المرأة من كليات الإصلاح، فلا سبيل لتحقيق الترابط العضوي بين قضايا الإصلاح الاجتماعي وقضايا الإصلاح العام"**، مؤكدة أن **"مسألة المرأة تقع في صلب المسألة الاجتماعية وتؤطر لأبعادها، بدءًا من سلامة الأسرة وصعودًا إلى النسيج الأخلاقي والمعنوي والحضاري الذي يعم المجتمع"**. هكذا كان مدخل الإصلاح هو نقطة اقتراب الأستاذة الدكتورة منى أبو الفضل من ملف المرأة على وجه العموم.

**على المستوى الأكاديمي:**

- رأت أ.د.منى أبو الفضل أن حقل دراسات المرأة من منظور إسلامي سيعد مجالًا تطبيقيًّا جيدًا لمسلك معرفي ومنهجي جديد، من شأنه إعادة ربط الباحث المسلم بأصوله التنظيرية على نحو سليم وإيجابي وفاعل، فهي تقارب قضية المرأة من منظور حضاري يستلهم الخبرة المعرفية الإسلامية، أي خبرة نشأة وتكوين العلوم في ظل الحضارة الإسلامية؛ حيث انعكست فكرة التوحيد بوضوح على هذا التكوين الذي جمع بانسجام بين المادة والروح، فضم أبعاد الحياة الإنسانية كلها، وجمع أبعاد الحياة الدنيوية والأخروية معًا، فكان علمًا غائيًّا منفتحًا ومرتبطًا بالقيم القرآنية الأولية كالاستخلاف والعمران والإصلاح...

- كما رأت أن حقل دراسات المرأة، يحمل، من منظور أكاديمي، إمكانات واعدة؛ نظرًا للعلاقة الخاصة التي تجمع بينه وبين سمة مميزة من سمات الحضارة الإسلامية: فالدراسات النسوية بوجه عام هي حقل بيني، وهي، من ثمّ، بؤرة لتجميع الحقول الأكاديمية الأخرى (**العلوم السياسية، علم الاجتماع، الأنثروبولوجي، الصحة العامة... الخ**). وبينما كان من سمات الحداثة أن تُجزئ وتُشتت حقول العلم، يحمل الحقل النسوي طابع التجميع وإعادة ربط الأبعاد المختلفة من الحياة. في الوقت نفسه يتسم النموذج المعرفي القائم على التوحيد الذي قامت في ظله الحضارة الإسلامية،

وعلى خلاف الحداثة، بالشمول والكلية والارتباط الطبيعي بين جوانب الحياة الروحية والمادية، وبين العقل والوحي، ونجد لدى المفكر الذي كتب من داخل النموذج الإسلامي ذلك المحور الجامع الذي مكنه من أن يكتب في (**الشريعة**) وفي (**الطبيعة**) دون أن يكون هناك شيء من الغرابة أو التناقض، وهذه، كما ترى رحمها الله، هي المنهجية التي تشكلت على ضوء النسق الفكري القرآني، وما حمله من خطاب حضاري عمراني. هذا الاتساق بين البعد الهيكلي لحقل دراسات المرأة وبين هذه السمة من سمات الحضارة الإسلامية، يمكن أن يجعل من هذا الحقل مدخلًا جيدًا لإعادة تقويم منهجية ومعرفية للمعرفة السائدة بوجه عام.

– إن تأسيس حقل لدراسات المرأة من الداخل الإسلامي مبادرة إيجابية في طريق مواجهة ما يطرحه حقل الدراسات المهتمة بالمرأة المسلمة في الغرب، الذي يقدم قراءاته الخاصة عن تاريخ وواقع المرأة المسلمة، وهي قراءات تتأثر تلقائيًّا بمنظومته الفكرية وخلفيته الأيديولوجية التي تفرز منظورات ومناهج لا تتحقق شرط التكافؤ المنهاجي مع الظاهرة التي تدرسها.

– إن دراسات المرأة من الداخل الإسلامي من شأنها أن تقدم تصورات وعلاجات لمشكلات المرأة في الداخل الإسلامي بما يتفق وواقع هذه المرأة وترتيبها لأولوياتها، وبما يراعي حاجاتها الإنسانية: اقتصادية واجتماعية وقانونية... جنبًا إلى جنب مع حاجاتها الثقافية والفكرية. فهناك على الساحة الفكرية اليوم أطروحات مختلفة تتحدث عن قضايا المرأة في الداخل الإسلامي وتقدم تصورات وأجندات عمل لتغيير واقع المرأة المسلمة، وهي تصورات كثيرًا ما تلقى رفضًا من المرأة المسلمة نفسها التي لا تجد أفكارها الخاصة وثقافتها ممثلة في هذه التصورات، فالمرأة، كالرجل، عضو في جماعة، ولها أولوياتها المرتبطة بالجماعة والمرتبطة بأدوارها الاجتماعية المختلفة وبذاتها كأنثى، والمرأة تدرك هذه المستويات المختلفة من الحاجات بشكل منسجم وتلقائي ولا يقتصر تفكيرها في ذاتها على كونها فردًا مغبونًا أو محرومًا من الحقوق، لكنها فردٌ وجزء من جماعة ومن مجتمع ومن أمة.

– كما أن دراسات المرأة بوجه عام تتجه لتقديم تصورات مختلفة، تصورات نظرية في بناء المعرفة وأخرى عن التغيير المجتمعي من منظور نسوي (**وهي تصورات تتنوع بين تيارات النسوية المختلفة لكنها تتفق في كونها تحاول الاستفادة من الخبرة والتجربة الإنسانية الأنثوية التي تم تهميشها في عمليات بناء العلم والمعرفة**)، فإن حقل دراسات المرأة من الداخل الإسلامي سيقوم بالمهمة نفسها؛ أي تقديم تصورات نظرية واجتماعية تستفيد من الخبرة الإنسانية للمرأة. وسيأتي هذا متسقًا مع المرجعية الأساسية للتنظير في هذا الحقل، ممثلة في القرآن الكريم، الذي وجه للمرأة اهتمامًا خاصًا وخاطب المرأة الأنثى عند مستوى معين بشكل يتكامل مع مستويات خطاب أخرى وجهت للجنسين ولجماعة المؤمنين وللناس وللعالمين.

– هذه التصورات والأفكار التي يمكن أن يطرحها حقل دراسات المرأة من الداخل الإسلامي، لن تكون محلية الاستخدام فحسب، بل يمكن تقديمها للعالم كإسهام من المسلمين الذين دأبوا في مرحلة مبكرة من تاريخهم على تقديم إسهامات علمية وفكرية جليلة للعالمين من منطلق الرسالة العالمية للإسلام. تؤكد أ.د.منى أبو الفضل أن المسلمين مطالبون بالبناء وتقديم النموذج العالمي "**لأن دورنا لايقتصر على أنفسنا ولا نستطيع أن نتقوقع على داخلنا في عصر يفرض علينا التعامل مع الخارج**". الإسلام كما رأته أ.د.منى أبو الفضل، يختلف ويتميز عن الحضارات الأخرى التي تسعى فحسب للحفاظ على خصوصياتها، وذلك لأنه، إلى جانب خصوصياته، يتميز ببعد عالمي، يجد تجسيده فيما تدعوه د.منى بـ"**النسق المعياري**"، وبيان ذلك أننا عندما نصيغ حلولًا لإشكاليات مجتمعنا وقضاياه (**سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا**)، فإننا لا نكتفي بالبدء من الواقع والانتهاء إليه، بل إننا نعمل داخل نسق معياري نقدم من خلاله الرؤى والحلول. هذا النسق يتسم بالعالمية؛ فالإسلام يكرس فعالية الإنسان ليس تجاه الداخل فقط، بل تجاه الخارج أيضًا انطلاقًا من كون المسلمين هم "**أمة الشهود**".

من هنا كان حرص أ.د.منى أبو الفضل على دمج ما تقدمه دراسات المرأة من الداخل المسلم في دراسات المرأة عالميًّا، لكي نثبت لأنفسنا موقعًا نستطيع منه أن نقدم

تصوراتنا وأطروحاتنا للعالم، متجاوزين الموقعين اللذين فرضتهما علينا العولمة: موقع الرفض والانعزال، وموقع الاتباع والذوبان...

وقد جاء الموقف الإيجابي منها (**رحمها الله**) متسقًا مع تطورات الفكر الغربي الذي دأبت على مراجعته وقراءته قراءة دقيقة، قراءة العالم صاحب الرسالة الحضارية. حيث شهد الفكر الغربي منذ الستينيات مرحلة مراجعة مستمرة من داخله، تبلورت في بزوغ مرحلة ما بعد الحداثة التي أضحت معها المسلمات والمقدمات الكبرى ووسائل تحصيل المعرفة وغاياتها جميعًا في حالة من المراجعة والتعديل والشك وعدم اليقين؛ لأن جميع المطلقات الكبرى أصبحت نسبية تخضع للتساؤل [1]، ومن ضمن هذه المطلقات التفرقة السلوكية بين المعياري والامبريقي وبين الحقيقة والقيمة، كذلك وجهت ما بعد الحداثة معولها نحو هدم فكرة التقدم الأوربي من منظور علمي وتاريخي. ومن جهتها، كانت الاتجاهات النسوية في فلسفة العلم بوجه عام تعيد النظر في الإبستومولوجيا التقليدية وتشكك في المضمون المعرفي للطبيعة والحدود التقليدية للمعرفة، هذا المضمون الذي تجاهل السياق الاجتماعي والسياسي للذات العارفة في إنتاج المعرفة العلمية ذاتها، حيث وضّح الاتجاه النسوي في فلسفة العلم أثر القيم والاهتمامات الثقافية والاجتماعية في عملية المعرفة؛ أي ارتباط المعرفة العلمية بالمحيط الثقافي والاجتماعي الذي تنشأ فيه، وهي الفكرة التي سادت في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث أسهم بعض فلاسفة العلم المعاصرين أمثال "**توماس كون**" (1922-1992) و"**بول فيبر آبند**" (1924-1994) و"**نورود راسل هانسون**" (1924-1967) في توطيد دعائم الإبستومولوجيا العلمية ونبذ الفكر الإبستومولوجي الوضعي التجريبي." [2]

وانطلقت الإبستومولوجيا النسوية على الأخص من فكرة أن هناك تصورات ومفاهيم وممارسات معرفية سادت تاريخ العلم وعملت على إعاقة المرأة بوصفها

(1) نصر محمد عارف، "حالة علم السياسة في القرن العشرين: تاج العلوم هل يستطيع أن يكون علمًا؟"، **مجلة النهضة**، جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، العدد الأول، أكتوبر 1999، ص 24،25.

(2) خالد قطب، "**الاتجاه النسوي في فلسفة العلم**"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة القاهرة، مجلد 61، عدد4، أكتوبر2001، ص477.

ذاتًا عارفة ومتميزة ومختلفة عن تقديم تصورات ومفاهيم وممارسات معرفية نسوية، من بين هذه التصورات والمفاهيم مفهوما العقلانية والموضوعية [1] ، ومن ثم لجأ الاتجاه النسوي في فلسفة العلم إلى ما يسمى بعلم اجتماع العلوم لإعادة قراءة تاريخ العلم والكشف عن البنية الاجتماعية والتسلطية وراء هذا التاريخ، وبيان تهافت النظرة الوضعية التي ترى أن التصورات العلمية والمفاهيم المعرفية تنفصل عن تاريخ صانعيها ومجتمعاتهم، وأن العلم ينفصل عن كل عملية اجتماعية لأنه موضوعي... وقد كشفت الإبستومولوجيا النسوية أيضًا عن البنية العلمية التسلطية التي تعكس الخلفية الأيديولوجية للمؤسسة العلمية التي ينتمي إليها العالِم والتي تمارس ضغوطًا من نوع ما من أجل أن يقدم معرفة علمية تتناسب وأيديولوجية هذه المؤسسة [2] .

هذه الأفكار التي قدمتها تيارات مختلفة من الفكر الغربي وداخله الفكر النسوي، والتي تهاجم المسلمات والعموميات وتركز على فكرة الاختلاف والنسبية، هيأت المجال لبروز أطروحات مختلفة من ثقافات أخرى خارج حدود المركزية الغربية.

لقد لاحظت أ.د.منى أبو الفضل أن تيارات الفكر النسوي، تتسم، كما الفكر الغربي بوجه عام، بعدم الارتباط بمرجعية ثابتة في ظل نموذج الحداثة الذي يغيب فيه المركز عدا مركزية الإنسان/ العقل الذي هو نسبي بطبيعته، من ثم فإن آلية الجدل وطرح الأفكار (**الفكرة ونقيضها والفكرة ونقيضها**...) كانت تسير في مدارات تأرجح، تنتهي في كثير من الأحيان إلى مآلات عدمية أو عبثية حول العلاقة بين المرأة والرجل أو العلاقة بين المرأة ومجتمعاتها، لذلك كان الهدف أن يقدم حقل دراسات المرأة من الداخل الإسلامي حلولًا لأزمات هذه التيارات تعيد ربط المرأة ربطًا عادلًا وفاعلًا بدورها الاجتماعي العمراني، كونه يرتكن إلى مرجعية معرفية توحيدية، لها عقدها الناظم ومحور ارتكازها المطلق.

(3) **المرجع السابق**، ص479.

(1) **المرجع السابق**، ص482.

3 – **مبادرات مؤسسية:**

أحدثت أ.د.منى أبو الفضل تغيرًا أساسيًّا في نهج عملها في مشروع دراسات المرأة والذي بدأ كجزء من مشروع أعم، هو مشروع دراسة الفكر الغربي، الذي عكفت على العمل عليه بمفردها منذ مطلع ثمانينيات القرن العشرين، وذلك بالتحول من العمل الفردي على الفكرة إلى الدفع نحو تأسيس كيانات مؤسسة ترعاها، **وقد تجسد هذا في:**

**(أ) تأسيس كرسي زهيرة عابدين للدراسات النسوية في جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في ولاية فيرجينيا الأمريكية.**

انطلقت مبادرة تأسيس كرسي زهيرة عابدين للدراسات النسوية بقرار من مجلس أمناء جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية الذي يتخذ من ولاية فيرجينيا الأمريكية مقرًا له، في جلسته المنعقدة بتاريخ 17/ 4/ 1998. والدكتورة زهيرة عابدين، وهي والدة أ.د.منى أبو الفضل، هي اسم بارز في مجال الخدمة الإنسانية والاجتماعية، ليس على مستوى مصر أو العالم العربى فقط، بل على مستوى العالم الإسلامي أجمع؛ حيث يمتد إلى المسلمين في بلدان غير إسلامية، ولها بصماتها الواضحة على مختلف أوجه الحياة الاجتماعية في إطار جهد متصل بدأ جنينًا في الخمسينيات، ونما وازدهر طيلة حياتها وحتى وفاتها عام 2002.

أما جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية SISS فهي جامعة أُسست عام 1996، وكانت أحد المراكز الإسلامية النشطة التي اجتهدت للتأسيس لقاعدة علمية رصينة، وقد حمل مؤسسوها حلم أن تكون هذه الجامعة نواة لمرجعية حضارية إسلامية مستنيرة ومنفذًا لعالمية الخطاب الحضاري الإسلامي عبر: مراجعة المناهج، وإعادة هيكلة الأكاديميا، وتكوين كوادر رسالية علمية ومهنية متمكنة وواعية في مجالها. في إطار هذا التوجه، جاء تأسيس كرسي دراسات المرأة الذي حددت أ.د.منى أبو الفضل أهدافه **على النحو التالي:**

- بناء وتطوير منظور معرفي حضاري إسلامي في دراسات المرأة، وتوظيفه في تقويم حقل، وإعادة قراءة تراث، وترشيد خطاب.

• تقديم دراسات حول الإسلام والمرأة، وحول المرأة في العالم الإسلامي، واقعًا وتاريخًا وتراثًا من المنظور الحضاري الإسلامي على نحو يمهد لتراكم علمي فكري يمكن التعويل عليه في تصميم المناهج وإعدادها.

• تقديم الأطر المرجعية والضوابط والمعايير العلمية المعرفية لقراءة نقدية بنّاءة في الأدبيات النسوية عامة، وفي الدراسات والأبحاث وجملة المنتج الأكاديمي والفكري حول المرأة المسلمة خاصة.

• القيام بحركة تصحيح من الداخل الإسلامي من خلال إعادة قراءة التراث للتنقية والتجلية، حتى نتجاوز السلبيات ونتخذ من الإيجابيات أساسًا نتواصل معه ونبنى عليه.

• اتخاذ المرأة والقضايا العمرانية المتصلة بمسائل التنشئة والتربية والأسرة وبعلاقات الجنس والنوع وغيرها من المفاهيم الحيوية التي تدخل في صميم المقاصد الشرعية، مدخلًا لتوليد وتنشيط حركة اجتهادية تجديدية تكون فاتحة في مجالها.

• القيام بدراسات ميدانية في واقع حال المرأة المسلمة والمشكلات التي تواجهها في إطار المعرفية المرجعية المعنية، على نحو يجعل أولويات البحث ومسالك الحل تنبع من الداخل الاجتماعي الحضاري.

• تقديم إطار بديل للنظر في قضايا المرأة والتغيير، وترشيد وتوجيه حركة البحوث والدراسات المتنامية، وصياغة الخطاب البديل في المحافل العلمية والأكاديمية والفكرية والأدبية، المحلية منها والإقليمية والعالمية؛ لتكون في متناول صانع القرار ومنفذ السياسات.

• العمل على تحقيق التواصل والربط والتنسيق بين الجهود المختلفة، الموجودة منها والممكنة، بعد الكشف عنها والتعبئة، لتكون نواة لكوادر وأطر علمية وفكرية وعملية تسهم في دعم الأكاديمية الجديدة.

**(ب) تأسيس جمعية دراسات المرأة والحضارة بالقاهرة:**

بادرت أ.د.منى أبو الفضل بتأسيس جمعية دراسات المرأة والحضارة في شهر مارس من عام 1999، وهي جمعية غير حكومية ذات طابع أكاديمي. كان الفريق البحثي الذي ضمته الجمعية قد تشكل فعليًّا في وقت سابق من تلميذات أ.د.منى أبو الفضل ومريديها قبل تشكّل الجمعية رسميًّا، لكنه عملَ في البداية تحت تسمية: **"وحدة**

**القاهرة"** أو **"وحدة دراسات المرأة في مركز الحضارة"**، ككيان منبثق عن كرسي دراسات د.زهيرة عابدين لدراسات المرأة في جامعة العلوم الإسلامية، يقابله في المملكة المغربية **"وحدة المغرب"** أو **"رواق الفهرية"** [1] الذي نشط فيه عدد من الباحثات المغربيات جمعهن بالمثل الإيمان بالأفكار التي كانت أ.د.منى أبو الفضل تطرحها وتروج لها في زياراتها وندواتها العلمية داخل العالم الإسلامي.

وقد قدمت جمعية دراسات المرأة والحضارة منتجًا بحثيًّا يجسد الأهداف التي حددتها أ.د.منى أبو الفضل أعلاه لكرسي دراسات المرأة. وضمت الجمعية جماعة بحثية منسجمة نجحت في إنجاز عمليات التدريب الجماعي الذاتي، واستطاعت أن تفتح مجموعة كبيرة من الملفات المهمة في موضوع المرأة وتنجز مشروعات بحثية طموحة في فترة زمنية محدودة.

وقد عمدت الجمعية في إنتاجها الفكري على الخروج خارج التصنيفين السائدين المتنازعين لقضية المرأة: الإسلامي والعلماني، ووقفت في المقابل على أرضية معرفية منفتحة، تستقي مرجعيتها من الأصول الدينية الأساسية، وتنفتح بلا حساسيات مسبقة على التراث الإسلامي وعلى الإنتاج النسوي، وعلى الواقع المحيط، محددة هدفها في الإصلاح؛ إصلاح واقع المرأة وإنصافها باعتبار ذلك مدخلًا أساسيًا في الإصلاح الاجتماعي ككل.

والمطلع على برنامج عمل جمعية دراسات المرأة والحضارة يلحظ طموحًا كبيرًا، تمثل في عدد كبير من المشروعات البحثية الأصيلة في موضوعاتها والاقترابات المقترحة للاستخدام فيها، وقد نجحت الجمعية في إنجاز عدد من هذه المشروعات نعرضها في الجزء التالي مباشرة من هذه الورقة.

(1) نسبة إلى السيدة فاطمة بنت محمد الفهري (**أم البنين**) التي قامت بتشييد مسجد القرويين، المعلمة التاريخية البارزة في قلب مدينة فاس. شُيِّد سنة 245 للهجرة. وتحكي الروايات أن أم البنين صامت كل أيام البناء.

**4 - أهم المشروعات والإنتاجات الفكرية التي شكلت معالم حقل دراسات المرأة من الداخل الإسلامي الذي أسست له الأستاذة الدكتورة منى أبو الفضل ومدرستها الفكرية:**

**وتضمنت ما يلي من مشروعات:**

**(1) ببليوجرافيا المرأة العربية:**

أحد أهم المشروعات الأولى التي أنتجتها جمعية دراسات المرأة والحضارة، وقد كان مشروعًا تمهيديًّا لعمل الجمعية استهدف التعرف على الكيفية التي فكر بها المجتمع العربي الإسلامي حول المرأة خلال فترة زمنية تقترب من زهاء 150 عامًا، بما يكشف أصول وأنساب الأفكار المعاصرة حول المرأة. كان البدء به أحد المقتضيات التي تطلبها بناء حقل دراسات المرأة من الداخل الإسلامي، فكل حقل جديد على حد تعبير أ.د.منى أبو الفضل يقتضي رسم خارطة للخطاب القائم تقوم بالتعريف بالحقل من حيث مصادره وتطوره ومدارسه ومناهجه وقضاياه، كما تكشف مشكلاته وثغراته التي يمكن أن يسهم في علاجها أو تقويمها أصحاب الطرح الحضاري في قضية المرأة ارتكانًا إلى رؤية معرفية جديدة. وقد تم تقسيم الخطاب حول المرأة الذي تم مسحه إلى ثلاث مراحل هي: فترة النهضة (1850-1955)، والفترة الوسيطة (1956-1974) والفترة المعاصرة (1975-1999).

وقد كان البدء بهذا المشروع من الأهمية بمكان، إذ لفتت نتائجه الانتباه لموضوعات مختلفة شغلت اهتمام الفريق البحثي وطورن عبرها عدة مشروعات أخرى على رأسها مشروع المرأة وعصر النهضة العربية، ومشروع ندوة عائشة بنت الشاطئ مما سيلي ذكرهما.

وقد صدرت الببليوجرافيا في شكل كتاب أعدت له المقدمة التحليلية الدكتورة أماني صالح، ونشرته دار الفكر بدمشق عام 2002 تحت عنوان (**المرأة العربية والمجتمع في قرن: تحليل وببليوجرافيا للخطاب العربي حول المرأة في القرن العشرين**) (1).

(1) توازى مع مشروع مسح الكتب الحديثة والمعاصرة حول المرأة مشروع آخر لرصد حضور المرأة في مصادر التراث الإسلامي، من حيث المؤلفات التي كُتبت حول المرأة أو التي ألفتها المرأة في فروع العلوم

**(2) التدريب الذاتي الجماعي على القراءة النقدية وتحليل الخطاب:**

بالتوازي مع مشروعاتها المذكورة، عمدت جمعية المرأة والحضارة على بدء مشروع للتعلم والتدريب الذاتي الجماعي، تمثل في عقد ورش عمل أو ورش عصف ذهني بين فريق الباحثات أنفسهن. وكانت منهجية العمل في هذه الورش تبدأ باختيار نص ما **(من الكتابات النسوية الغربية، وذلك لتحقيق هدف مزدوج؛ التدريب على القراءة والنقد جنبًا إلى جنب مع التعرف على الفكر النسوي وقراءته قراءة نقدية بناءة، أو اختيار نصوص ذات صلة بموضوع بعينه يكون محل مشروع بحثي سيتم الشروع فيه)** يتم توزيعه على مجموعة الباحثات لقراءته عبر ممارسة نوع من الفعل النقدي الحر؛ بمعنى عدم الالتزام المسبق بمدرسة نقدية بعينها أو بإطار معين في تحليل النص أو تفكيكه، وإنما التفاعل مع النص وقراءته نقديًّا بحرية سواء من خلال الحس الصائب أو من خلال تأثره الشخصي بمدرسة أو أخرى من مدارس التحليل أو النقد. وبدلًا من دعوة أحد الأساتذة ليلقي دروسًا جاهزة في القواعد الخاصة بالتعامل النقدي من منظور هذه المدرسة أو تلك على مجموعة من المتلقين أو السامعين، أي بدلًا من نمط التعليم التلقيني القائم على علاقة فوقية تسير في اتجاه واحد، كانت الحلقات النقاشية تقدم نموذجًا عكسيًّا ينقلب فيه هرم العلاقة من عدة نواح؛ أولها أن بنية الكلام وحصيلته لا تتشكل من صدر الطاولة بل من قاعدتها، وثانيها أن الأفكار والخلاصات التي تنتهي إليها الحلقة لا تكون مسبقة، بل نتاج تراكم الخبرات الفردية لكل من الباحثات. وكان يُطلب من الباحثات -إلى جانب التعامل مع موضوع النص تحديدًا- محاولة الخروج بتعميمات تتعلق بما خلصن إليه من خلال الممارسة العملية من قواعد عامة مجردة يتم على أساسها نقد النصوص. وذلك للفت النظر إلى الطريقة أو المنهج الصحيح لتكون وبناء العلم ومناهجه، وإلى امتلاك لحظة الإحساس بالخلق والإنجاز، وهي اللحظة المفتقدة في ضوء منهجية التلقي والتلقين، أو حتى في تطبيق قواعد منهج معين جاهز من القراءة على نص بعينه. وذلك انطلاقًا من أن العلوم والمناهج تولد دائمًا

المختلفة، وقد تم قطع شوط طويل في العمل على تجميع هذه المخطوطات من قبل الفريق البحثي بالقاهرة وبالمغرب، لكن المشروع لم يكتمل.

وأبدًا من خلال خبرات الملاحظة والاستنتاج والتعميم الفردية في نطاق علوم الطبيعة، ومن خلال خبرات التفاعل الفردي بين المفكر (**أو الباحث**) والظاهرة، ثم جهده في الاستنتاج والتعميم، وما يتم عقب ذلك من بناء وتراكم عبر جهد مماثل من باحثين أفراد آخرين.

واستمرت الجمعية طيلة السنوات التي شهدت فاعليتها (1999-2002) تعقد هذه الورش بشكلٍ دوري دءوب، وبعد صدور دورية المرأة والحضارة -التي سيلي الحديث عنها- بدأت الجمعية تنشر تقارير هذه الورش في أعداد الدورية. وقد كانت هذه الورش أهم معمل للتعلم الذاتي، الأمر الذي ساعد على صقل القدرات البحثية لفريق العمل وتوطيد أركان المنظور الذي يعملن من خلاله في بحوثهن.

(3) **دراسة: "الأوقاف الخيرية: نحو توطين نموذج إسلامي معاصر للتنمية البشرية- دراسة في أوقاف الفرد والجمعية الأهلية وأوقاف النساء"**

انطلقت هذه الدراسة من هدف البحث عن صيغة لتفعيل نظام الوقف الخيري الإسلامي وتحديثه في أطر وصيغ مستحدثة تسمح لهذا النظام العريق أن يستعيد دوره الجليل في تحقيق التكافل والعدل الاجتماعي ورفع الخصاصة والبؤس عن فقراء المسلمين، وبناء الحضارة الإسلامية وتفعيل عناصرها، وذلك كجزء من غاية أكبر لإحياء وتفعيل سائر الأنظمة الإسلامية وتحقيق مقاصدها. وقد اقترحت الدراسة أن الوعاء التنموي الأمثل لتفعيل الوقف الخيري هو التنمية البشرية، لكن مثلما يحتاج الوقف الخيري للانخراط في المشروع التنموي المعاصر في المجتمعات الإسلامية لكي يستعيد فعاليته الوظيفية، فإن التنمية تحتاج بدورها -لكي يُكتب لها النجاح- إلى التفاعل الإيجابي مع البيئة الثقافية والالتحام بالمؤسسات الأصلية في المجتمعات النامية عمومًا، والمجتمع الإسلامي على وجه الخصوص، حيث انتهت تجارب التنمية المغتربة التي لم تحقق ذلك التواصل إلى الفشل والإخفاق. وهذا المطلب أطلقت عليه الدراسة مطلب التوطين. وقد قدمت الدراسة مفهومًا للتنمية من المنظور الحضاري الإسلامي، يستبطن أسس معرفية تخص الحضارة الإسلامية علي رأسها جعل البعد الغيبي للكون حاضرًا علي المستوي الفكري والتطبيقي للفاعليات الاجتماعية، كما يستبطن مفاهيم

الاستخلاف والعمران كمفهومين جوهريين في الحضارة الإسلامية. وقد ناقشت الدراسة أوقاف النساء والدور التنموي لها؛ انطلاقًا من أن أوقاف النساء مثلت ركنًا من أركان نظام الوقف في التاريخ الإسلامي القديم والحديث، وكشفت كيف استطاعت المرأة المسلمة أن تسهم إسهامًا متكافئًا مع الرجل في التنمية الاجتماعية بمختلف أوجهها من خلال مؤسسة الوقف [1].

**(4) ندوة "بنت الشاطئ: خطاب المرأة أم خطاب العصر؟ مدارسة في جينيولجيا النخب الثقافية" 22-23 مارس 2000:**

في إطار الهدف العام للجمعية المتعلق بتقديم مراجعات مستمرة وقراءات واعية ناقدة بناءة في الخطابات الفكرية للأمة ومنها الخطاب حول المرأة وخطاب المرأة نفسها، اتخذت هذه الندوة من المنتج الفكري الثري الذي قدمته الدكتورة عائشة عبد الرحمن **"بنت الشاطئ"** (1913-1998) مدخلًا لقراءة المنتج الفكري لعصر. كانت عائشة عبد الرحمن أحد الرموز الفكرية والنسائية العربية التي امتازت بالثراء الواسع في فكرها وإنتاجها العلمي والأدبي المتنوع؛ فقد استطاعت في المراحل العمرية والفكرية المختلفة لها الولوج لمناطق مختلفة في ممارسة الفكر وإنتاج الخطاب، ومنها علوم القرآن والحديث والأدب وكتابة المقالة الصحفية وأيضًا كتابة السيرة الذاتية. إضافة إلى أنها تمثل ثقافة قرن بأكمله؛ فقد عايشت وعاصرت التحولات الفكرية المختلفة في القرن العشرين وتأثرت بالتوجهات الفكرية التي عاصرتها سواءً في حقل الدراسات الإسلامية أو الفكر النسوي، ومن ثم، سعت أعمال الندوة للسير على خطين متوازيين: يقدم أحدهما إنتاج بنت الشاطئ في فرع معين، ويتجاوزه انتقالاً إلى الإنتاج الفكري العام في الفرع نفسه. وعمدت الندوة لأن تتخذ من دراسة بنت الشاطئ مناسبة لدراسة جيوب **"النخب"** الثقافية من النساء التي نشأت في الواقع المعاصر، ومنها شريحة النخبة النسوية، مع محاولة للتأريخ للمجتمع ورحلة المثقفين للبحث عن الذات والهوية، ورحلة الصراع بين التحديث والمعاصرة والمواجهة مع الآخر الغربي [2].

(1) الدراسة الآن قيد الإعداد للصدور في شكل كتاب، إن شاء الله.

(1) الندوة الآن قيد الإعداد للصدور في شكل كتاب، إن شاء الله.

**(5) المرأة وعصر النهضة:**

خلال دراسة النتائج التي وفرتها ببليوجرافيا المرأة العربية في قرن، تبلورت لدى أ.د.منى أبو الفضل ملامح مشروع لإعادة قراءة تاريخ المرأة المسلمة في المرحلة التي يطلق عليها **"عصر النهضة العربية"**، وذلك عبر الجمع بين مراجعات معمقة لأنماط مختلفة من المنتج الفكري ذي الصلة، يضم ذلك: القراءات المعاصرة لقضايا وخطاب المرأة في تلك المرحلة (**سواء الكتابات العربية، أو الغربية سيما التي ينتجها حقل دراسات المرأة المسلمة في الغرب من منظور نسوي**)، والخطاب الذي قدمه المفكرون الرجال حول قضايا المرأة في تلك المرحلة، والخطاب الذي قدمه الرحالة والمستشرقون الأجانب المعاصرون لتلك المرحلة حول القضية نفسها، والخطاب الذي قدمته المرأة نفسها في المرحلة المعنية. وقد قدمت الجمعية أوراق ودراسات متفرقة حول هذه القضية التي أولتها أ.د.منى أبو الفضل عناية خاصة كونها مثلت المحضن الذي نبتت فيه جذور الفكر المعاصر بما شمله من صراعات واستقطاب [1].

وإذ كانت رحمها تطرح مشروعها الجديد في القاهرة في مطلع الألفية الجديدة 1999/ 2000، فقد كانت دائمة الإشارة إلى أوجه التشابه التي حملتها هذه المرحلة – كونها مرحلة انتقالية بين خواتيم قرن مضى ومشارف قرن آت– مع المرحلة نفسها في مطلع القرن العشرين التي عايشت أيضًا عمليات نشطة لإعادة النظر والتفكيك لجوانب المعرفة والوعي، واتخذت فيها قضية المرأة موقعًا مركزيًّا في صلب عملية **"تشكل الوعي الحديث"** الذي ارتبط بواقع الاحتكاك بالآخر [2].

(1) قامت كاتبة هذه السطور بإعداد أطروحتها للماجستير في هذا الموضوع، بحيث يمكن اعتبار هذه الرسالة جزءًا من الإنتاج الفكري لهذه المدرسة حول مسألة المرأة والنهضة، انظر:
هند مصطفى علي، **الإصلاح السياسي في خطاب المرأة المصرية في الفترة 1892–1952: دراسة في خطابي ملك حفني ناصف وهدى وشعراوي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، نوفمبر 2004.

(2) **المرأة وفكر النهضة... رؤية حضارية**، محاضرة ألقتها د.منى أبو الفضل في إطار الموسم الثقافي لمركز الدراسات المعرفية بالاشتراك مع جمعية دراسات المرأة والحضارة بالقاهرة، 12–9–1999.

رأت (رحمها الله) أن مطلع القرن العشرين شهد **عالمية** تتلاقى في بعض سماتها مع **"العولمة"** التي نعرفها اليوم، تمثلت تلك العالمية المبكرة في **"المركزية الأوروبية"**، حين كان النادي الأوروبي هو بعينه النادي الدولي، فيما عدا عضو وحيد هو الدولة العثمانية التي شكلت **"الرجل المريض"** الذي تكالبت عليه أوروبا. وقد كانت أصداء هذه العالمية حاضرة في أوساط النخبة الفكرية، وبصفة خاصة في مصر.

وقد كشفت في ملاحظاتها بشأن تطور الخطاب الإسلامي حول قضايا المرأة بين العالميتين، أنه فيما كان بروز الإسلام في تلك الفترة المبكرة يرتبط بالدفاع عن الموروث الاجتماعي، وكان الطرح الإسلامي واضحًا لم يشبه استقطاب **(ولم يكن الإسلام أحد القضايا المتداولة بل ظهرت محاولات من مختلف الفرق لجعل المرجعية الإسلامية في صالحها)**، لكن مع نهاية القرن بدأ الخطاب الإسلامي يشهد استقطابًا على نطاق واسع، وتم تجاوز الطرح الإسلامي كواقع حضاري، وبدأت المرجعية الإسلامية ذاتها تخضع للمراجعة وعمليات التفكيك وإعادة البناء.

وفي مقابل الاهتمام المتزايد الذي كان حقل دراسات المرأة المسلمة والشرق الأوسط في الغرب يوليه لتلك المرحلة – أي مرحلة عصر النهضة- وما تضمنه من خطاب ومن رموز نسائية [1]، كانت أ.د.منى أبو الفضل حريصة على مقاربة مرحلة النهضة بقراءة

(1) انظر مثلًا:

-Beth Baron, **The Women's Awakening in Egypt**, New Haven: Yale University Press,1994.

-Judith E. Tucker, **Women in nineteenth-century Egyp**t, Cairo: The American University in Cairo, 1986.

-Leila Abou-Lughod (ed.), **Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East**, Cairo: AUC press,1998.

-Leila Ahmed, Women and Gender in Islam (New Haven: Yale University Press,1992.

-Leslie P. Peirce, the Imperial Harem: Women and sovereignty in the Ottoman Empire, New York, Oxford: Oxford University Press, 1993.

-Margot Badran and Miriam Cook (ed.), Opening The Gates: A century of Arab Feminist Writing, Indiana University Press, 1990.

-Margot Badran, **Feminists, Islam, and Nation: Gender and Making of Modern Egypt,** Princeton: Princeton University Press,1995.

بديلة تستوعب ثراء هذه المرحلة المهمة من تاريخ الأمة وطبيعة التحولات المعرفية التي سادتها ونمط هذه التحولات وتفاوتاتها بين النخب الثقافية المختلفة، وبين الرجال والنساء من مثقفي الفترة. وفي ورقة أعدتها أ.د.منى أبو الفضل حملت عنوان **"خطاب المرأة في عصر النهضة... قراءة بديلة"** [1]، أوضحت معالم هذه **"القراءة البديلة"** التي تستبطن المنظور الحضاري العمراني المستند بدوره للمعرفية التوحيدية، والتي هي قراءة مغايرة في إطار المنظور للقراءات المقدمة والسائدة والمستبطنة للمنظومة المعرفية للحداثة.

**تصف أ.د.منى أبو الفضل القراءة المستندة إلى المنظور الحضاري بأنها:**

- **قراءة واعية:** أي الواعية بالمنطلقات والأهداف والغايات... قراءة تعي أن وراء كل خطاب هناك حيز أو فضاء يستبطنه هذا الخطاب، عن وعي أو دون وعي، قاصدًا أو دون ذلك، وهو ما يطلق عليه **"ما قبل المنهج"**، وهو الذي يحدد مسارات البحث: بحيث يتحكم في الأجندة البحثية، بما تحمله من مفاهيم وقيم تشكل منطلقات وأطر ووجهة البحث، ويحدد كذلك المعايير الحاكمة للنظر والتنقيب، ويحدد ما يتم إقصاؤه أو استبعاده، وما يعتبر مهمًا أو ذا دلالة حاكمة Relevant أو له معنى في واقعنا.

**بعبارة أخرى:** إن كل **"قراءة"** تنطوي على عمليات تصنيف وانتقاء وفرز للمادة المتاحة، حتى قبل أن نبدأ في تطبيق منهج محدد في التناول أو في التحليل والتأويل أو... الخ. وهذه الجملة من الفرضيات المستبطنة، أو التصورات الكلية، هي مساحة ما قبل

_____, "The Origins of Feminism in Egypt", in: Arina Angerman (ed.), **Current Issues in Women's History**, London: Routledge,1989.
-Nikki R. Kiddie and Beth Baron (ed.), **Women in Middle Eastern History: Shifting boundaries in sex and gender**, New Haven & London: Yale University, 1991.
-Salma Botman, "Women's Participation in Radical Egyptian Politics 1939-1952", in Women in The Middle East, London & New Jersey: Zed Books LTD,1987.

(2) منى أبو الفضل، هند مصطفى، **خطاب المرأة في عصر النهضة... قراءة بديلة**، في مؤتمر **"مائة عام على تحرير المرأة العربية"** 23- 28 أكتوبر1999، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، 2001.

المنهج التي ترتبط بما نطلق عليه في العلوم الاجتماعية الـ World View أو النظرة الإجمالية أو التأسيسية للوجود لدى الباحث. وهذه بدورها ترتبط بالمنظومة المعرفية السائدة أو المعروفة بالمنظومة المهيمنة – Dominant Paradigm.

**والقراءة الواعية إذًا** هي قراءة تكون على وعي بهذه البنية القبْلية، ومن ثم تكون في موقع يسمح لها أن تتحرر من أسرها، فيمكن لها أن تتحرك من وراء **"الخطوط الحمراء"** أو عبر الحدود غير المعلنة التي تصطنعها، فتتجاوزها، وتحدد بدايات ومنطلقات ومسارات مغايرة لها، وتطرح أسئلة خارج إطار المعهود أو المعمول به، فيتحرر مجال البحث وينفتح لفصائل جديدة من الظواهر أو المصادر التي **"تستحق"** النظر والدراسة، كما تتجدد آفاق النظر فيما تم التوافق على دراسته، بحيث يمكن التوصل إلى نتائج غير معهودة من المادة نفسها التي تكون قد قُتلت بحثًا وفقًا للقراءات السائدة.

- **قراءة نقدية:** القراءة الواعية بالأبعاد المعرفية والعقدية للخطاب هي قراءة نقدية؛ قادرة على التفكيك والتجاوز، تفكيك ما قبل المنهج، وتفكيك عناصر الخطاب، وليس مجرد تحليل لنص خطاب.

- **قراءة بنَّاءة:** تتجاوز القراءة التفكيكية العدمية، التي جُلّ همها التقويض والهدم، أو تلك التي تتوخى إثبات الذات من خلال مجرد النفي، أو التي تتحسس مواضع **"الخروج"** و**"التمرد"**، والتي لا تكون عادة سوى قراءة إقصاء واختزال. حيث تسعى القراءة البناءة إلى الوقوف على سلبيات الخطاب أو مواقع الخلل فيه، وذلك للتجاوز وإعادة البناء، وليس للانتصار لموقف أو لاتخاذ النقد حد انتهاء.

- **قراءة هادفة:** القراءة الواعية البنَّاءة، هي قراءة هادفة: غائية أو مقاصدية.

- **قراءة تقف على أرضية بديلة:** القراءة البديلة لا تستقيم دون الوقوف على أرضية بديلة، فمقتضيات النقد الرشيد لا تكتمل في غيبة معايير وكليات يمكن الاحتكام إليها، حيث إن آليات التفكيك، إن أخذت مداها، لا يمكن أن تكفل مقومات إعادة البناء، وأنه ما لم تتوازَ وتتوازن العمليات التفكيكية للخطاب المتاح، مع قابليات تركيبية موازية، فالتفكيك مآله إلى نزعات فوضوية، أو عدمية... خاصة وأن

المنظومة المعرفية المهيمنة والتي تتيح المجال لمداخل متنوعة يمكن من خلالها للوعي النقدي ممارسة عمليات التفكيك، ولكنها لا تحمل من داخلها مقومات لإعادة التركيب، على نحو يخرجها من طاحونة العبثية/ الدوائر المفرغة التي تعايشها.

وقد قامت (**رحمها الله**) بتطبيق مقومات هذه القراءة البديلة في بحثها المذكور عن خطاب المرأة في عصر النهضة العربية، فبداية من مفهوم "**النهضة**" ذاته، قدمت قراءة مغايرة له عنه في القراءات السائدة له، والتي رأت أنها تقصر معنى النهضة على مضامين تنطوي عليها التجربة الحضارية الأوروبية، وتسعى لتعميمها بتوظيف أيديولوجي للعلم، مؤداه الخلط بين العلم في أبعاده الجزئية، والفنية التخصصية والمادية، وبين العلم في أبعاده الفلسفية والمعنوية، وذلك لتكريس مواقع الهيمنة والسيادة والمركزية الغربية على سائر الشعوب والثقافات الأخرى، وفي هذا المعنى تُختزل النهضة ومقاييسها إلى معاني المواكبة واللحاق بالنموذج الغربي، بحيث إن كل ما يخرج عن هذا، أو كل منتج معرفي أو حركة اجتماعية من شأنها أن تشكك في هذه المعاني، أو تحد من عقلية المقاربات والقياس والتماثل والتشبه، أو التي من شأنها أن تعرض لمعاني إصلاحية من منطلقات مغايرة، يتم تجاوزها أو إقصاؤها من مجال النظر والتقويم والحكم المسبق على عدم جدواها. في ضوء هذا، كانت من نتائج القراءة البديلة: اكتشاف أصوات نهضوية جديدة لم يتم الانتباه إليها في القراءة السائدة، وكذلك كشف النقاب عن معانٍ ومساحات فكرية مختفية لدى رموز محتفى بها ومعروفة.

وانتقالًا من مفهوم النهضة إلى أسلوب مقاربة خطاب المرأة في القراءات السائدة له وخاصة القراءة النسوية، أوضحت أ.د.منى أبو الفضل أن القراءة النسوية تنطلق من مدخل خاص من شأنه التبعيض، والتفتيت، والتمزيق، فضلًا عما يتسم به من أبعاد الاختزال والنزعة الإقصائية، إذ ينطلق الفكر النسوي من رؤية الإنسان الفرد الأعزل في مواجهة "**الآخر**" فردًا كان أو جماعة (**فهو لا يرى المجتمع سوى جملة من الوحدات المفردة**)، ويختزل هذا الفرد إلى مكوناته، وبخاصة إلى أبعاده الحسية المادية. وفي ضوء هذا، نجد القراءات المعاصرة لخطاب المرأة في عصر النهضة تختزل هذا الخطاب؛ فلا تلتفت فيه إلا إلى المساحات والمواقف التي يكون فيها التعبير عن الأنثى في مواقع

الاستلاب والنقمة أو التمرد والصراع، أو حيث التعبير عن رغبات مكبوتة وأحاسيس بالقهر إزاء الجنس الآخر، أو ما شابه ذلك من سقوط في دوائر نرجسية مفرطة أو في خطابات سجالية، يتوسم فيها مواضع التماثل مع خبرة المرأة في صراعاتها في الغرب، في منظومة قوامها الصراع من أجل البقاء، وهو ما من شأنه اختزال الخطاب/ الخطابات التي أسهمت في إنتاجها **"المرأة الشرقية"**، بانتماءاتها العريقة، وبذكائها وفطنتها وحسها العمراني والإنساني كامرأة تعيش واقعها الاجتماعي التاريخي في الحوض الحضاري العربي الإسلامي بعناصره الغنية المتنوعة.

**(6) دورية المرأة والحضارة:**

مثلت دورية المرأة والحضارة أبرز المنتجات الفكرية للجمعية حضورًا، إذ وفرت لها طبيعتها – كدورية- قدرًا من الانتشار، مكَّن من أن يكون للجمعية اسمًا بين المعنيين بقضايا المرأة في العالم العربي. وداخل مصر قامت إحدى الأوراق العلمية التي قدمت في مؤتمر عقد بكلية الاقتصاد العلوم السياسية في مطلع الألفية حول الفكر المصري المعاصر، بتصنيف الجمعية كواحدة بين ثلاث جهات فقط تعني بقضايا المرأة من مدخل بحثي وأكاديمي.

صدر من دورية **"المرأة والحضارة"** ثلاثة أعداد على مدار ثلاث سنوات من عام 2000 إلى عام 2002، وحمل كل عدد منها مشروعًا بحثيًا أصيلًا في ذاته. يمكننا أن نعرض هنا للمشروع الذي حمله العدد الأول، ونقدم فكرتي العددين الآخرين تاليًا كمشروعين مستقلين.

فقد عُني العدد الأول بالتقديم لفكرة إعادة بناء المعرفة النسوية بوجه عام. حددت د.أماني صالح –رئيس تحرير الدورية- في مقالها في العدد الأول الأسباب التي تدفع وتحث على نشأة معرفة نسوية من منظور حضاري إسلامي في نوعين من الأسباب: أولهما- يتعلق بالمعرفة النسوية الغربية المهيمنة والمسارات التي انتهت إليها، باعتبارها مسارات تثير في النهاية شعورًا بالرفض وعدم الرضا لدى قطاع كبير من النساء غير الغربيات؛ إما لتناقضها مع رؤيتهن الخاصة للعالم ولذواتهن وللأهداف المرجوة لحركة النساء، أو لتناقضها مع أطرهن المرجعية الأصلية. وثاني تلك الأسباب- أسباب

متعلقة بتشخيص واقع ومشكلات النساء في العالم الإسلامي والجذور الثقافية لتلك المشكلات، **"فإذا كانت المعرفة النسوية تهدف إلى تحرير العلم والثقافة من مكونات الانحياز الذكوري، والبحث عن الأسس والركائز والحجج التي تدعم مفهوم العدل والمساواة الإنسانية بين البشر، وترفع الغبن عن النساء، فإن هذا التعريف -في حد ذاته- يفرض بالضرورة خصوصية المعرفة النسوية الإسلامية؛ ذلك أن الثقل الأشد وطأة على النساء في العالم الإسلامي إنما ينبع من منظومة الثقافة، ثم العديد من العلوم والمعارف الدائرة حول الدين وأحكامه، سواء منها ما يتعلق بتفسير الآيات والفقه وعلم التاريخ، كما يتعلق ببنى التنظيم الاجتماعي التي تزعم تمثيل القيم الدينية والأخلاقية. وباختصار: فإن الظلم الواقع على النساء في العالم الإسلامي إنما يرجع إلى منظومات المعرفة البشرية التي نسجت حول الدين، واكتسبت قداسة مزعومة من مجرد اقترابها منه رغم بشريتها الأصلية وتاريخيتها. وبناء عليه، يمكن القول بأن حركة إنصاف المرأة لا يمكن أن تتم إلا بتوافر ذلك الشق المعرفي الذي يهدف بوضوح ودون التباس إلى تفكيك التاريخي البشري عن النصوص المقدسة المجردة، وتطهير الأصول والمصادر الإسلامية (قرآنًا وسنة) مما أُلصق بها من عناصر بشرية تأويلية، وبناءات فكرية مصدرها الحقيقي هو الأعراف والآراء والانحيازات البشرية"** [(1)].

وقد قامت بتحديد خصائص هذه المعرفة في: أصالة المكون الميتافيزيقي فيها جنبًا إلى جنب مع المصادر المادية للمعرفة (**بخلاف المعرفة النسوية الغربية التي تعتمد العقل البشري والخبرة المادية والإنسانية مصدرًا وحيدًا للمعرفة**)، واستنادها إلى إطار مرجعي عقدي أكبر، وأنها معرفة نقدية في جوهرها ومضمونها إصلاحية في هدفها، وكونها ليست نطاقًا انعزاليًّا للمعرفة بل تهدف لتأكيد وحدة واندماج المجتمع والثقافة لا انفصامهما على أسس عنصرية ونوعية، وأنها معرفة محكومة بالضوابط الموضوعية والمنهجية الإسلامية، ومنها الطرح الوظيفي الأخلاقي للعلم الذي يُعبر عنه إسلاميًّا بمفهوم العلم النافع، وكذلك **"العدل"** كقيمة ضابطة كلية في المعرفة والنظام

(1) أماني صالح، نحو منظور إسلامي للمعرفة النسوية، **المرأة والحضارة**، القاهرة: جمعية دراسات المرأة والحضارة، العدد الأول، أكتوبر 2000، ص7-11.

الاجتماعي والسلوكي والديني في المنظومة الإسلامية. المعرفة النسوية كذلك هي معرفة تحررية ضد السلطة المطلقة لفرد أو جنس أو رأي أو نظام وحيد، فهي معرفة ترفض النظام البشري الاحتكاري، لأنها تطرح حقيقة تعدد وتنوع الجنس البشري والاعتراف بكرامة الآخر وأهليته للتكليف وحقه في المشاركة والتأثير من خلال الشورى والأمر بالمعروف... فالحرية هنا هي التحرر من الخلق لا من الخالق، وتؤكد أخيرًا أن نمو هذه المعرفة النسوية الإسلامية رهين بنمو تيار ثقافي اجتهادي في نسيج المعرفة والثقافة الإسلامية عمومًا؛ لأنها جزء لا يتجزأ من ثقافة الاجتهاد والتجديد في الفكر والثقافة الإسلامية بفروعها المختلفة [1].

**(7) سيرة المرأة في التاريخ الإسلامي:**

صاغت باحثات الجمعية مشروعًا ضخمًا بعنوان **"المرأة في التاريخ الإسلامي"**، كان عبارة عن دراسة معمقة من منظور اجتماعي عمراني لدور وحضور المرأة عبر فترات التاريخ الإسلامي بدءًا من مرحلة النبوة وحتى بداية العصر الحديث. ورغم أنه لم يكتب لهذا المشروع الطَموح التنفيذ بشكل كامل، لكن الجمعية استطاعت أن تغطي بعض مرادها فيه عبر العدد الثاني من دورية المرأة والحضارة والذي خرج في صورة سفر يحمل عنوان **"سيرة المرأة في التاريخ الإسلامي"**، وتضمن عبر دراساته مشروعًا لإلقاء الضوء على الدور الذي قامت به المرأة المسلمة عبر القرون في التاريخ الإسلامي، وذلك من خلال تتبع موضع المرأة في نسيج التاريخ العام للأمة وفعالياتها في البيئة الحضارية لها. وقام العمل البحثي في العدد على مستويين: المناهج، والمصادر. فعلى المستوى الأول، كانت هناك محاولة لرصد الأسس المنهجية التي تم بُناءً عليها تدوين سير النساء في التاريخ الإسلامي،وعلى المستوى الثاني، تم استكشاف والتنقيب عن سير النساء المسلمات في المصادر التاريخية الأولى، ثم العمل على إعادة نسج هذه السير لكتابة تاريخ المرأة المسلمة. في ضوء ذلك تعرض العدد لمفهوم التراجم والسير في علم التاريخ الإسلامي، والدور الذي بذله المؤرخ المسلم لذكر دور المرأة، وتمت مناقشة السلطات التي تتحكم في التاريخ الرسمي لاسيما سلطة الدولة والسلطة الشعبية

(2) المرجع السابق.

والسلطة الدينية، وكيف أثّر ابتعاد أو اقتراب هذه السلطات الثلاث من المُثل الإسلامية، على مكانة المرأة عبر التاريخ الإسلامي.

ونهج العدد نهجًا طريفًا في **"رواية"** تاريخ المرأة المسلمة؛ إذ تحدثت المقالات عن فئات من النساء: النساء السياسيات، والفقيهات، والمتصوفات، وسيدات بيت النبوة، والشاعرات، إضافة لنساء شكلن موضوعات أساسية للقصص والحكايات والأساطير العربية التاريخية والشعبية. هذا، وقد استخدمت الباحثات المصادر وأمهات الكتب التاريخية المنتجَة في بدايات عملية التأريخ الأولى التي قام بها المؤرخون المسلمون أي منذ القرن الثاني وحتى القرن الثالث عشر للهجرة، فكشفت عن زخمٍ من المعلومات المجهولة عن تاريخ النساء المسلمات.

وقد هدف العمل على سيرة المرأة، وبحسب تعبير أ.د.منى أبو الفضل، إلى إحداث كشف مزدوج، فمن ناحية كان إسهامًا في بناء المعرفة حول المرأة المسلمة، ومن ناحية ثانية الشروع في عملية إعادة كشف وتأكيد الهوية الحضارية؛ **"لأنه من شأن السيرة أن تبعث على وقفة مراجعة داخلية تنمي الإدراك والتفكر في الذات"** [1].

**(8) المرأة في القرآن:**

كان موضوع المرأة في القرآن بدوره مشروعًا بحثيًّا أساسيًّا على برنامج عمل جمعية دراسات المرأة والحضارة، إذ كان التأصيل لحقل التخصص **(حقل دراسات المرأة)** من المنظور الحضاري الإسلامي يقتضي أن تكون هناك صلة فاعلة مع مصادر التنظير الإسلامي وعلى رأسها وفي مقدمتها القرآن الكريم. وكانت الأسئلة المهمة في هذا الصدد تدور حول: عندما نتطرق للقرآن باعتباره مصدرًا تأسيسيًّا للإطار المرجعي الذي نبحث فيه قضايا المرأة والحضارة، أي بصفته مصدرًا لبناء الإطار المعرفي الكلي، كيف يكون تعاملنا مع القرآن مختلفًا عن التعاملات الجزئية السابقة كتعامل المفسر أو الفقيه أو النحوي أو غيره، حين يقف عند كل آية أو لفظ على حدة؟ وإذ ندرك أن الوحي الإلهي مصدر معرفي وليس توجيهًا أخلاقيًّا فقط، فما هي الأبعاد التي يمكن أن

(1) انظر مساهمة د.منى أبو الفضل في العدد الثاني: **"نحو منظور حضاري لقراءة سيرة وتاريخ المرأة المسلمة"، مرجع سابق**، ص 159.

نستفيد فيها من ارتباطنا بالوحي باعتباره مصدرًا للبيان والفرقان والذكر إلى جانب كونه مصدرًا للهدى؟ (1)

وقد تم اتخاذ موضوع **"المرأة في القرآن"** محورًا للعدد الثالث من دورية المرأة والحضارة الذي تضمن مشروعًا طموحًا لتقديم قراءة كلية استقرائية تفاعلية للخطاب القرآني كمصدر معرفي ومنهجي، تتخذ من موضوع المرأة ميدانًا تطبيقيًّا لها، وقد توازى ذلك في التطبيق مع عمليات نقد متواصلة للخطابات المؤسسة حول الكتاب الكريم من تفاسير تراثية وقراءات معاصرة. وحددت مقدمة التحرير الافتراضات التي انطلق منها العمل البحثي **في هذا العدد ممثلةً في التالي:**

- أن القرآن هو المصدر الأساس والمرجع الأول للأحكام والعقائد والأخلاق في الإسلام، ومن ثم فهو يمثل المرجعية في تأسيس وبناء تصورات ومعتقدات المسلمين ومنظوراتهم الشاملة للحياة والوجود والنظم والأفكار والمعاملات، وكذا تعاملاتهم واستفاداتهم من سائر المصادر الأخرى للمعرفة والخبرة الإنسانية، ويكون اللجوء إليه بالتالي من منطلق الحاجة إلى إرساء قواعد منهجية تساعد على إعادة قراءة حقل دراسات المرأة وتساعد على مراجعة التراث الإسلامي وكذا تراث الآخرين. هذا الافتراض يتضمن بالأساس النظر للوحي باعتباره مصدرًا معرفيًّا وليس مجرد موجه أخلاقي.

- في مجال التأصيل العلمي يتم التمييز في مصادر التنظير الإسلامي بين مصادر أصلية وأخرى مشتقة، الأصلية هي القرآن والسنة المبينة له، أما المشتقة فهي سائر أبواب وعلوم التراث والفكر الإسلامي في مجالاته المختلفة.

- هناك فارق أساسي بين النص وتأويله؛ فمهما بلغت التأويلات من إصابة في الولوج إلى مراد النص، فإن ذلك لا يلغي ذلك التمايز الأصلي الراجع لتباين مصدري النصين... وهذه الحقيقة التي تنأى عن تثبيت وتقديس المحاولات الإنسانية لتأويل

(2) انظر مداخلة د.منى أبو الفضل في الحلقة النقاشية المعنونة: **"المرأة في القرآن... خبرة الباحث الاجتماعي في الاقتراب من النص القرآني"**، **المرأة والحضارة**، القاهرة: جمعية دراسات المرأة والحضارة، العدد الثالث، أكتوبر2002، ص ص 224-231 .

الكتاب كفيلة بخلق الدافعية لدى كل جيل من أجيال هذه الأمة للاقتراب من الذكر وتقديم أقصى الجهد لفهمه وتفسيره، ولكن بدون تجاوز المصادر الأخرى إلا ببينة وحجة.

وقد أثار هذا العدد قضايا منهجية وموضوعية مهمة منها مثلًا ما يتعلق بشرعية استخدام مفاهيم حديثة النشأة والتطوير في الثقافة الغربية مثل مفهوم النوع الاجتماعي **(الجندر)** لتحليل الخطاب والواقع الحضاري للمسلمين، وأوضحت الورقة التي تناولت هذا الموضوع أنها تعتقد-وفق ضوابط معينة- في شرعية استخدام الفكر العربي الإسلامي لمفاهيم غربية النشأة بعد القيام بعملية نقد صارمة لتلك المفاهيم وافتراضاتها الخلفية وفي حال أمكن الوصول إلى بعد إنساني غير محلي يتيح لتلك المفاهيم التعميم في الاستخدام وفق تعريفات معينة. وقد خلصت الورقة إلى الكشف عما اعتبرته المفهوم القرآني الأكثر صلاحية في وصف علاقات النوع وهو مفهوم **"الزوجية"** وانتهت إلى أنه المفهوم الأوفق والأشمل في وصف وتكييف علاقات النوع من المنظور المعرفي الإسلامي، وذلك في مقابل قطبين مفاهيميين هما: القوامة والجندر.

كذلك اهتمت فئة أخرى من الأوراق بدراسة حضور المرأة في القصص القرآني، وصولا إلى استنتاجات محددة، تدور بعضها حول خصائص النظام المعرفي الإسلامي، وبعضها حول المفاهيم **(الرحم، الأمومة، النفس)** وبعضها حول الدور الإنساني **(التكليف، الأمانة، المسئولية، الاستخلاف، العمران...)**. فتم على سبيل المثال: تناول قصة الخلق تناولًا مقارنًا بين كل من القرآن والتوراة، وتم طرح أفكار ورؤى جديدة حول الولاية السياسية للمرأة بإلقاء الضوء على نموذج حكم المرأة الذي قدمه القرآن الكريم في سورة النمل وهو نموذج ملكة سبأ.

واهتمت طائفة أخرى من الأوراق بالانتقال من الموضوع إلى المنهج، ومن البحث في **"الخطاب القرآني"** إلى البحث في **"الخطاب حول القرآن"** أو علوم القرآن، فطرحت إحداها **"دلالات منهجية في قراءات السيدة عائشة القرآنية: الاستدراكات نموذجًا"**، وتناولت أخرى **"أسباب النزول وأحكام النساء في الفقه الشافعي"**.

كانت هذه إطلالة سريعة على مشروع أ.د.منى أبو الفضل لبناء حقل دراسات المرأة من الداخل الإسلامي من واقع خبرة بحثية خاضتها جمعية المرأة والحضارة عبر مسيرة عمل وإنجاز وإن كانت قصيرة الأمد الزمني نسبيًّا من حيث الاستمرارية، لكنها عميقة وقيّمة الفعل والأثر من حيث الإنتاج والمخرجات، وهو مشروع طموح أُنتجت داخله كثير من الأفكار الثرية التي عجزت هذه الورقة المختصرة عن الإحاطة بها، خاصة وأن العمل فيه اقترن بطرح عدد كبير من المشروعات البحثية التي اجتهد في بلورتها وتنفيذها فريق العمل من الباحثات اللائي تتلمذن على يد أ.د.منى أبو الفضل وعملن على تفعيل أطروحاتها النظرية، تلك الأطروحات التي كانت تُعنى في المقام الأول بـ"تشكيل" و"صياغة" العقل المفكر، وصقل قدرته على الإنتاج الفكري الذاتي عبر المنظور والنسق الفكري الذي تشربه، أكثر من اعتنائها بملء هذا العقل بالمعلومات. وليست المشروعات المذكورة أعلاه إلا جزءًا من مخطط كبير لمشروعات مختلفة ومتنوعة لم يتح تنفيذها على الوجه الأكمل، وإن تم التعامل معها أحيانًا تعاملًا جزئيًّا على طريقة ما لا يدرك كله لا يترك كله. ومن أهم المشروعات التي لم يسع المجال لتنفيذها مشروع **"المرأة والسنة"**، الذي يمثل الاضطلاع به – مثل مشروع المرأة في القرآن الكريم– ضرورة منهجية وإصلاحية في الفكر والمجتمع المسلم عمومًا وفي قضايا المرأة خصوصًا. فالسنة الصحيحة هي ثاني مصدر من المصادر الأساسية للتنظير للأمة الإسلامية بعد القرآن الكريم، وهي النموذج التطبيقي للتوجيه القرآني في كليته، وهي تجربة أولى جامعة لتنزيل الوحي المطلق على عالم الواقع بجزئياته وتبدلاته، لكنها في الوقت نفسه تفرض في طبيعتها البشرية منهجًا مختلفًا لقراءتها، مثلما يفرض القرآن بإطلاقه وتجاوزه للمكان والزمان، منهجًا خاصًا في الاقتراب منه وتأويله. وفي قضية المرأة على وجه الخصوص يعول على السنة كشف كثير من ملامح الإساءة إلى المرأة التي تتم بغطاء زائف من الدين عبر القراءات القاصرة للسنة النبوية واستخدام الأحاديث غير الصحيحة، وفي الوقت نفسه كشف الدور الفاعل الذي لعبته المرأة المسلمة في احتضان الدعوة وفي خدمة الأمة. في هذا الإطار تضمنت مخططات جمعية دراسات المرأة والحضارة التي لم تكتمل مشروعًا حول "المرأة والسنة"، يعالج عدة موضوعات

حيوية، منها دور المرأة في حفظ السنة، بداية من الأدوار التي أدتها أمهات المؤمنين والراويات، ودور المرأة في السنة ظهورًا وحركة، بمعنى كيف برزت المرأة في السنة **(بمعناها الجامع: السنة القولية، والسنة الفعلية)** وكذلك أزمة المرأة مع السنة التي ولدتها القراءات المختزلة، وعمليات الوضع في السنة... لكن هذا المشروع، كما سلفت الإشارة، لم تتح الظروف النهوض به وتنفيذه.

opeikan.com

## خاتمـــة

يمكن القول في ختام هذا التعريف الموجز بأهم نماذج الإنتاج البحثي التـي قـدمها مشروع بناء حقل لدراسات المرأة من الداخل الإسلامي وخبرة جمعية المرأة والحضارة والخبرة البحثية الذاتية لمقدمة هذه الورقة فيها، إن هذا الحقل الذي نشأ، لا انعزالًا عن حقل الدراسات النسوية العالمي، بل كجزء متميز منه يسعى لتجاوز سلبياته وعلاجها ولإصلاح مساراته، قد عمد عبر استخدام المنظـور الحـضاري الإسـلامي، إلى تقـديم مقاربة جديدة لقضايا المرأة المختلفة يتميز بها عن المقاربات السائدة ويسعى عبرهـا إلى إعادة دمج المرأة بالأمة في الدراسات النظرية.

ففيما تميل المقاربات السائدة، تأثرًا بفردية الحداثة ودوافعها الـصراعية، إلى التركيـز على خبرة المرأة الأنثى الفرد في نضالها في مواجهـة الرجـل، أو في مواجهـة مجتمعاتهـا، **(وعلى حد تعبير أ.د.منى أبو الفضل، قراءة الفعل والإسهام النسوي بطريقة تركز على مواضع "إثبات الذات من خلال مجرد النفي، أو بطريقة تحسس مواضـع "الخـروج" و"التمرد")**، فقد حرصت كل المشروعات البحثية التي عرضنا لها، من خلال المنظور الحضاري الإسلامي، على مقاربة قضايا المرأة بطريقة لا تفصلها عن محيطها الاجتماعي الحضاري:

– فمقاربة مواطن تهميش المرأة أو الإجحاف بحقوقها تُقرأ ضمن الخلـل العـام في البنية الاجتماعية والثقافية، أو الخلل في قراءة الأصول والتعرف على حقيقة موقع المرأة ومكانتها، والخلط بين الأصيل والمختلق في هذا المقام، وبالتالي، فهي قراءة تتضمن، في سعيها لرفع الغبن عن المرأة، تصحيح الخلل العام على أكثر من مستوى.

– كذلك فإن مقاربة مواطن قوة المرأة وأدوارها الفاعلة تتم ضمن منظومة تراعـي تسكين إسهامها في البنية الاجتماعيـة العامـة، وتراعـي بحـث العوامـل الدافعـة لهـذا الإسهام داخل المنظومة الثقافية والاجتماعية التي تنتمي إليها المرأة، كما تراعي التأصيل لهذا الإسهام الإيجابي في المنظومة العقدية والمعرفية والحضارية، والتأصيل له كذلك في الخصوصية الأنثوية ذاتها.

- ناهيك عن الوعي بأن هذه المقاربة الأكاديمية المتمايزة عن القراءات السائدة، هي في ذاتها فعل إصلاحي وإسهام حضاري داخل المنظومة العلمية والمعرفية، من شأنها إعادة الربط بين المرجعية التنظيرية للأمة، وبين منظومتها المعرفية بما فيها نمط تشكل العلم والمعرفة، وفيما بينها وبين نمط التكوين والتطور الحضاري العمراني للأمة.

obeikan.com